دار قصص وحكايات
للنشر الإلكتروني ٢٠٢١

جنون في منتصف الذاكرة

•• مجموعة قصصية ••

الزين نور الدين

جنون في منتصف الذاكرة

مجموعة قصصية

الزين نور الدين

العنوان: جنون في منتصف الذاكرة

النوع الأدبي: مجموعة قصصية

المؤلف: الزين نور الدين

قوة السرد: كتابات إبداعية

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

تصميم الغُلاف: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: 2021

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2021

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

توطئــة

المكان والمكانة

في مكان صوفي،وخلاب من موقع رمال الجزائر الذهبية تتربع مدينة بشار . المكان والمكانة . الصرح الثقافي التاريخي الشامخ طموحها مثل أي مدينة جزائرية،علو السماء عزيمتها رسو الجبال وعزمها شموخ الامير عبد القادر.من على هدا الصرح التاريخي والجغرافي اليانع يلوح لك منظره شاهق الركح،مزينا بالمناظر الطبيعية الصحراوية الخلابة وكدلك في اجمل المواقع زينة وبهاء وافلاد الارض المقناة.كان دلك ما علق بذاكرتي عندما زرت بشار مند خمس عشرة سنة خلت في مهمة ثقافية، كنت ساعتها قد قرأت في عيون أبنائها البررة،وهم يتوافدون الى قاعة المؤتمر الدي ذهبنا من اجله ،يحومون حول هده القاعة كتحويم الفراشات على رونق الجلسان عيونهم ملئ بالنظر الحصيف،تشعر وكأنهم يمتصون رحيق الأمل من نبع الفضاء المترامي في رعشة المتألق،الحافل بالتلذذ وفي المقابل نجد نخبة، تقودها خبرة عالية ،وتشد بيدها عقيدة الإخلاص، وعزيمة الجهد،وسداد الرأي، وتدبر التفكير،تحاول أن تقوم بعمل يوضع موضع الدقة في العطاء،ماثلة بالأخص في نخبة من إنارة قلوب الأبرار من مبدعي بشار الماجدة ،كل يكفل بتحقيق أغراض المعرفة السامية ،وكل يسعى الى إعطاء نهضة علمية مباركة من مكانة بشار التي تتسم بأرج رحيقها الصافي.

ولعل من أريج ازاهير ثقافة بشار الزميل الزين نورالدين القاص، والباحث الآفق الدي طلب مني أن اقدم له مجموعته القصصية : جنون في منتصف الذاكرة.

وقبل أن أتطرق الى موضوع التقديم، اشد بحرارة على الأنامل الغضة التي تصح عزيمتها على إخراج كل ما يختلج مشاعرها في تجارب إبداعية تتربع على عرشها . المحاولة . وكل محاولة قابلة للتطور والتطوير، وفي هده الحال لا نملك إلا أن نشجعها، ونبارك لها خطواتها.ولعل اجمل ما في هده المجموعة أنها مبادرة طيبة في هدا الزمن الموبؤ الدي لا يولي اهتماما للكلمة إلا بما هي فظة.

وقبل دلك أيضا على أن أنوه بعلاقتي مع الزين نورالدين صاحب هده المجموعة القصصية الدي لم التق به إلا مرة واحدة فقط وكانت على عجل،ومع دلك فقد تعزز التواصل مرات عديدة عبر لقاء الكلمة بالكلمة بما تثمره من عطاء في أوضاعنا الثقافية فلقد قرأت . وما زلت أقرا . له الكثير بما يجود به قلمه ،شانه شأن الجيل الثالث بغير ما اجترار لما أنتجه الجيلان الأول والثاني لما بعد الاستقلال.

أما ادا أردت أن استدعي ذاكرتي في أثناء لقائي به داك،فكان أول ما التقطته بصيرتي عنه وفراستي فيه . آنداك . حين قلت في نفسي لعله ينم عن طاقة ذات كفاءة عالية.

أما الوجه الثاني الدي توقدت به ملامحي له،فهو اهتمامه الدقيق بالأشياء،بخاصة ما يصدر منه من محاولات نقدية جادة . أذكر أنني كنت أول المستهدفين منها فيما بعد ،وقد سرني دلك على الرغم من اختلافي مع وجهة نظره . فما كان مني إلا أن رنوت الى [3]آرائه النقدية رنوا فتفرست بها إبداعا،وتوسمت منها جدة ،واستشرقت بها جدية.

أما ثالث ما يشد الحصيف الثبيت،والقارئ الجزل فهو جرأته التي تضع كل يقين موضع سؤال . بعقل حافظ . ولسان لافظ،وبصر لاحظ وهو كغيره من الجيل الثالث يعتمد الذاكرة التجريبية التخيلية في عطائها المعرفي في مقابل الذاكرة العيانية التي سادت ردها معتبرا،وأسهمت من دون وعي في واقع محتويات وعينا لإظهار الذات المتعالية، أو الوجود المتعين.

من اجل دلك، نجد هدا الجيل يعطي الحيز الأكبر لكامن الأغوار المظلمة بفعل الكمنه المهيمنة على الإبداع المروج له، إعلاميا رغبة في تكميم الرؤيا الإبداعية، والتغلب بحجم هدا الترويج ومساحته الشاسعة على مساحة الحلم الضيق في تشكيل الصورة لدي الجيل الصاعد لإظهار مخزون جماليته التجريبية ،وتشكيل لمساته في هدا الوجود وادا ما رجحنا جمالية التجريب التي تمتلكها حواس كتابات الجيل الواعد وفق مقاييس التناسب والتناغم مع مجريات الأحداث فان صورهم الفنية،من منظورنا تخضع لعدة افتراضات:

المنظور الأول : سوداوي/ رافض وهو تصور إبداعي متفق عليه في الحقبة الزمنية المرتبطة بالتحول والداعي الى طرح السؤال: لم؟.

المنظور الثاني: مختلف حول الدلالة المحورية،والمبدع في هده الحالة يعيش زواج الأضداد فهو إما كونه يتنصت لنداء الذات أو ينجز لنداء الواجب الافتراضي.

أضف الى دلك انه في المنظور الأول المكوم . على الرغم من انه . يدل على الظلامية والسكون بما هو سلب لقوة الفرد واختفاء لسلطة نور الفعل المستمر ،فالرغبة في التصنت الى الذات توحي برفض الدائب المتسبب ضمن وضع حركية الفعل الدي يمدد زمنيته ببطء، لدلك لجأ هدا الجيل الى مواجهة زمن الفعل الساكن في طول امتداده النفسي فأحس بأهمية التحول المنتظر منه وهو الوجه الآخر لما ينبغي أن يكون عليه وجوده في تناغمه واستمراره القابل للامتداد الطبيعي لسنن الحياة،وفق حاصل التفاعل التصاعدي للواقع الاستشرافي.

إن هدا الاتجاه التطويري المتوالي مسند في إبداع الجيل الواعد الى الانفتاح /النور/الأمل المشرق، وهو في هدا تعزيز لوضع التنوير خارج حدود الإقليمية، وكأنما هناك بصيصا من الأمل لا محالة قادم في غمرة ما انتابنا من ظلام خلال العقدين الماضيين بخاصة العشرية الأخيرة من السنوات التسعين قبيل الدخول في الألفية الثالثة أو كأنما السكون يتضمن تنزيهه في ذات الحركة وفي هدا اختلاف واضح بين عمق

السوداوية التي حالت من دون بريق الأمل أو كأنما هدا الجيل قدر له أن يكون نقطة صفاء في غسق دامس وفي هدا كله إشعاع لأفق انتظار مشرق فناسب الترقب المرموز به في الواعية الإبداعية للمعنى المطلوب بالأمل المرتقب،المقترن بالغد المستنير.

ولم تكن الأوضاع على هده الحال التي آلت إليه من قبيل المصادفة أو الاختيار،وانما جاءت كدلك امتثالا للحديث القائل: . هدنة على دخن . حتى ولو كان دلك عن غير وعي أو بمقتضى سنن الحياة وبدوافع متطلبات الواعية الجمعية لتعبر عن التحدي، منه على سبيل المثال، تحدى هدا الجيل صعوبات واقع متناقضات الحياة . فلا غرابة ادا إن اتصل الجيل الثالث مع داته واصاخ لدوافع مشاعره بعد أن فقد الأمل في تخطي الجبال الراسيات والوجوم المانعة والوصية على كل ما هو آت والتي لم تفسح المجال للبراءة بالتعبير عن طموحاتها،فكانت ردة فعل هدا الجيل أن امتطى صهوة الغربة الى الذات بحثا،عن سر ما يليق بها فكان أن حفر بكلمات أقاحي أمره وكأنما حفر على الانفصال الوجودي اللافظ له،فرسم حلمه بالاتصال الآمن له بعد أن سئم من غرس الزهر في حجر الصلد.

واللافت أن إبداع هدا الجيل يقوم على تباين . تزواج الأضداد . في رسم الصورة/السمة بوصفها بنية دالة افتراضية لا تعبر إلا عن ذاتها من هنا كان هاجسه متوجسا مجربا في موافقة باستمرار ينور ولا يطمئن لشكل

أو لنمط واحد حاملا راية السؤال. وفي هدا اختلاف واضح بين عمق السوداوية التي ترعرع فيها،وكنه البراءة المتشوقة التي كانت تعتبر شقاءها في مصدر هامشيتها وغربتها.

وبالفعل إن ما يميز إبداعات هدا الجيل كونها شعلة جديدة،بتجربة جديدة ومتميزة على غير التجارب السابقة في مصادرتها المطلوب من قبيل اعتبار المقدمة هي النتيجة ،ومن هنا تباعدت العلاقة المستمدة من بيان علة الاختلاف في الاذواق والتصورات.

وادا تطلعنا . على سبيل المثال . الى ما اشتملت عليه مجموعة الزين نورالدين القصصية ـجنون في منتصف الذاكرة . لإدراكنا أهمية التطابق بين القيمة الجمالية والقيمة المعنوية وهو تطابق يوحي بالتناغم الحاصل بين الرغبة وتكسير المنهجيات السائدة.

وهدا يعني بان فضاء الزين نورالدين يمتلك الإمكان نفسه الدي يمتلكه فضاء تصور جيله للإبداع،ومن أعماق هده الأقلام الفتية تشكلت التجربة الجديدة،مفجرة سلاسل القيود الرتيبة حتى لكان عرش محتوياتها . وقيمة ما تشمله من إنجازات سائغة مع متطلبات العصر . تبدو مفرشه أجنحتها على الآمال والآفاق الرحيبة.

وادا كنا لا نستطيع إظهار ما يختبئ خلف هده المجموعة القصصية من معالم فنية،وقيم موضوعية في هدا المقام ،مقام التقديم/ التصدير بما يليق بالعين الناقدة فلأن الطريق الى دلك يقتضي وضعها تحك محك

البحث والدراسة،وليس المجال هنا لتنبيه أو تقصيه حسبي حسبيه عرض هده المجموعة بظهوراتها، لأن المقام يستوجب مقال العرض ،وليس مقال الدراسة والتحليل.

ادا ليس المقام هنا للحديث عن تجربة تكرس جهدها في بداية شق طريقها الواعد،ولا الفرصة سانحة لتحديد السمات الدقيقة لمكونات خصائص المجموعة القصصية : جنون في منتصف الذاكرة . التي تشكل وثبة نوعية في بداية مسيرة النشاط الإبداعي للقاص الزين نورالدين فالإطار القصصي في هده المجموعة يفرض على القارئ طريقة خاصة في بناء وحدة الحدث،وترابط أجزائه.

فالمجموعة تنحو إلى حصر واقع الحياة المركبة التعقيد،ومن هنا تأتي تجربة جنون في منتصف الذاكرة . لتحتوي مساحة هدا الواقع المرير. وقد لعبت تراكيب القاص المتنوعة مثل البناء والخيال وبخاصة اللغة دورا بارزا في استجابة القارئ لها من حيث كونها تؤسس لإثارة السؤال،اكثر ما تعني باستخلاص النتيجة.

وادا كانت هده المجموعة تعتمد الفعل التجريبي فلأنها تمثل مكابدة اليقين العميق للبحث عن المعنى الوجودي الملتحم بالواقع الاجتماعي. ولعل هدا النوع من التجربة يعد محاولة للتعويض عن العلاقة الإنسانية التي افتقدها مجتمعنا في السنوات التسعين بسبب ما آلت إليه الجزائر باحتضانها المجهول . أضف الى دلك أن هده التجربة تعد شعورا طبيعيا

تستلطفه الذات الظمأى رغبة في معانقة الكلى ومحاولة الكشف عن الحقيقة.

إن ميل القاص الزين نورالدين الى هدا النوع من الكتابة أمر يجب أن تكون له دوافعه ومسوغاته السياسية ،والاجتماعية،والثقافية،والفنية من واقع مرهون بمستجدات الألفية الثالثة التي تميل في عطائها الحضاري الى السرعة والتكثيف والانغلاق في مجمل تداعيات . الصورة . من هدا المنظور كان القاص يلجا الى العمق،انطلاقا من التوغل في الذات والخصوصية الخيالية،وهو طموح يضعه القاص نصب عينيه من اجل تجسيد شمولية الفكرة التي تعتمد على المشاهد واللوحات وتجاوز الوجود الفعلي للأشياء،وهي مهمة تنحصر في فهم تساؤل الخطاب المستمد من تساؤل الواقع.

لقد جاءت . حنون في منتصف الذاكرة . لتجد لنفسها فسحة في الحيز الإبداعي المترامي من محيط يعيش مفارقة الخيبة / الأمل ومع دلك فهي بذرة ترغب في تجسيد الحلم والرغبة ،وتأسيس الفعل من اجل أن يكون جيل القاص قادرا على تحقيق طموحاته في مقابل تجنب التعثر والوأد حتى لا يقع فريسة حصاد التسعينيات إذ كان كل شيء مجرد وهم ،وحيثما تلفتنا كانت تلاحقنا الموجة السوداء ،وكلنا توق الى معنى الوطن.

وفي هده التجربة ما يثبت أن شيئا ما يمكن أن يكون . ولنا حين نلجأ الى قراءة . جنون في منتصف الذاكرة . ما يطمئن من البال ويدعم الآمال في تشجيع مسيرة الزين نورالدين الإبداعية شأنه في دلك شأن جيله من الشباب الواعد الدي نأمل منه أن يضع من آيات البيان وأوابد الفنون ما يزين وجه هدا الوطن الغالي وينير قلوب الأبرار لبناء صروح مجد الجزائر.

. بقلم الناقد الدكتور: عبد القادر فيدوح2000

استاد محاضر بجامعة البحرين . دولة الإمارات العربية المتحدة.

الإهـــــداء

إلى أمي البدوية التي لم أشبع من طيبوبتها طفلا قبل أن توارىء التراب و إلى تللك (؟) التي أتعبتها معي في ألف حرف وكلمة ورسمتها في المخيال تهلوسا أكثر من مرة أهدي هذه المجموعة القصصية بالمرة.

للفتاة الهلامية التي منحتني حب العطاء في زمن لم أكن اعرف فيه المسافة بين الأشياء ومعنى الدهشة الزغرودة.

ولكن كانت لحظات ذكرى توشم بجسدي عنبرها الجميل و صوتها الرخامي شعرة تنسل بيننا لفاتنة أخرى .

تلكم توأمة هذا الكتاب مع باقي من ليالي العسر و الإنتظار ...

الزين نور الدين ١٩٩٨ بشار الجزائر

أوخزتني شوكة الكتابة، كذلك الأحمق فكنت آخر مخبولا يحمل على أكتافه أطراف المدن والأوراق والحيّات وقدمي ستكون كذلك أول من دخل غرناطة،وإلاَّ خرطت على جدرانها انطولوجيا الرعشة [1]

[1] *مطارحات فلسفية للمؤلف نفسه.

صحوة الارواح

قلت لك مرضك من داخلك ...

وانك تحتاج الى طبيب نفساني ف ... ع ...لا ...

آه ما بك ما لجسمك ينتفض ...؟!

هي ذي الحقيقة لا تزعج .. انك ملىء ،بالعقد ...تحاول تحطيم المرآة تتأسف ،و تستدير نحو ...تشد رأسك ،بين يديك يتشتت فكرك أشياء هاربة تمارس حضورها ،عليك بحدة، والى حيث لا تدري .. تتحرك تفتح النافذة ، فيما علت الرياح المجنونة تجلد أسوار المباني،بحبيبات رملية رقيقة ،الكلاب تعوي بالخارج و أنت تتألم بالداخل تتنفس من تحت ماء العرق خيالات تحس بها على مقربة منك تلتفت بحذر و تبسمل لا شيء كتبك مبعثرة،على سريرك الوسخ و قطتك فرشاة مزركشة بالأبيض،تبعث سمفونية شبيهة بحس المبرد المهترىء،لديكم تتطلع إليك حوامض الفقر تلقي بالكتاب أرضا تدحرج أصابعك،مع رقبتك توسع ،من ربطة عنقك .. تحمل القلم،بين أناملك اللزجة يرتعش ما به ...؟ لا تعرف بالضبط ربما أصابه مرض تناقضات العرب تقحمه يخط حرفا،حروفا، كلمة،عبارة،رسومات مبهمة تلقي به على الطاولة مهزوماً،كما هزم قيس،لأول مرة تقف أبطال ملثمون يشاطرونك الجلوس،و مسامير بمقعدك تدفعك نحو الوقوف وثمة أشياء تتآكل بخاطرك،لاتعرف من أين أتت،كالوديان مصبها عندك، و منبعها مجهول

تمشي تنساب مع الخطوات،الثانية تدلف الغرفة،والثالثة، و الرابعة الرواق تتنهد ضجيجا من أعماقك تقف تمسح العرق رغم البرد القارس يعود يتراء لك أن كل شيء تغير،تحس بالدوران تحضرك تتجمع،بحلقك رغبة في التقيؤ،تحاول أن تقلب أحشاؤك وبسرعة لا توصف يتحول الى بصاق تبصق،على الارض بصقتين وتجانبهما يصاحبك الانزلاق تمديدك،نحو الفراغ تسقط،كالمصاب بالنوبة القلبية على فراشك تعلوك ذرات،من الغبار تعتريك برودة الاسكيمو تتكوش،كالقنفذ تخيم على وجهك ضبابية و تحضرك أصوات غريبة اللهجة ترتدي رقابها رباطي عنق أنيقة،كانوا ينبثقون من الأرض،كالجراد و في شكل شياطين التفوا حولك،بعيون متدلية،وألسنة نارية و أياد هوت عليك،بلا هوادة كالخفافيش حتى اذا لزموا الصمت نطق أقصرهم،وهو يحبس رقبتك بقدمه هذا هو الذي ...و تآمر ضدنا مع أبطال غرباء عن الجهة ... !...

قاطعه الثاني في حنق :

. إن كان هو حقا فليفعل ذلك الان ؟؟؟

. ... !

صاح الثالث : مادا تنتظرون يا قوم ؟ فلتكن اليوم إذن (....) أرجوكم ... ! أرجوكم ... ! يا سادتي أصمت الآن بدأت تعترف كلكم تتكلمون في الفسح،و عندما تضيق بكم الأرض تحشرون أنوفكم أرضا

خشية التاريخ حرك أدنيه رابعهم كالجرو وتقدم مني يهتز،و هو يحمل مخلبا ضخما و قطعة سجادة ملطاء لا تزعج هي ذي الحقيقة ... نعم نجوم السماء فوق الجميع،وأنت أين أنت ؟ بين السماء و الأرض و هم ... وهم ... ذلك و تأهب لكتابة المحضر.

. ما إسمك ؟

. ...

عمرك ؟ ...

. ... !

. من أي فصيلة أنت ؟

. .... !

ماذا تقول ؟ ن ... ن ... نا ... نون ... و القلم ؟ ...

من أين أتيت بهذه المهزلة ؟ يا وقح خذها أيها اللعين ... ! يا إلهي ... يا إلهي ... إني على هدى ... أي ... وح أي ... وح أرجوكم ... أرجوكم ارحموا إلا (....) و أني مصاب سوى بداء الوهم صعدوا فوقه،و أخذوا يندبون و يرقصون،على جسده المرضوض و يرددون شعارات تجاوزها الزمن تلاشت أصوات ، من أماكن مجهولة فكانت جماجم تتوعده لاهثة على الأرض و تقذف،بحروف في شكل أسنان لامست السقف لتمطر على قلبه الذعر،و يستنزف طاقته تشابكت أياديهم و تقلصت وجوههم،فأخذوه إلى مكان بارد تناثرت من سقفه

خيوط حمراء و أجسام بشرية معلقة بجثث الثعابين،و الأفاعي الضخمة و من خلف الهامش المنسي،للقصر جاءت زفرة بلهجة سلطوية كبيرة...وتتدلى الهياكل النخرة بزمن الرفض و ... !

{ أنتم مشبهون بحجة التمرد مع ... توقيف الرجل في نصف المشروع}

و لما فتحت عيني اليمنى كنت آخر ما رأيت من تحت سرتي نفر كبير من الصبية يحملون على أكتافهم فوضى، من الأشياء، وأجراس القرع تؤذن بخراب الذكرى،كانوا يشبهون كثيرا جرح حيينا الملثم،بذاكرة الحزن و العيون الغائرة،بسر المنفى،والمكمم بخيوط العنكبوت في حين لغط الآخرين .. كان يملأ أدني المعطبتين ... !

مدخل جنوني:

عذرا سيدتي فقد تفقدني قلمي ليلا ،فأمتطى صهوة حبري بحرا دون مجاديف الوحي ،فلما أنتابه العياء أمرني و دون مواربة ،تحت شجرة العصيان الأبدي أكتب والا...

زوبعة الليلة الثالثة

. فما الذي سيحدث،بعد ذلك يا ترى ؟

زفرت،ثم دفنتها بين كتبي،و غيرت مكاني حين أغرتني صورتها،بجمالها المشرق رفضت حينها ملامحي،و شكلي الموبوء، حروف صغيرة بدأت تتوالى علي في سرعة مذهلة تشبه رائحة الليل،و صمت البحر الموحش بمجاذيب الحزن،تهاطل بذاكرتي صوتها الجميل،كما لو كانت على مقربة مني حملتها،بين حيرتي الموزعة،باللذة المشرقة ركزت عيني على شفتيها جيدا نبشتها،كمن يحاول استنطاقها جالت،بخواطري جراح عظيمة،هي الآن مجرد خيوط مهزومة،على هوامش حيرتي ...!

لعنة شيطانية أخذتني إلى أن أمزقها رغم لطافتها العتيقة كان شوقي يقتحم العرايا،و حلمي رحلة مكسورة على حافة قبر،و دموعي كانت مبللة بسكون غرفتي المهجورة،بكتبي المبعثرة أوقفت يدايا إرتعاشة باردة،كانت قد بدأت تحتل جسمي،منذ الظهيرة تحسست فراشي كالأعمى فأويت إليه متسللا قبل الأوان.

- ٢ -

انتشر الخبر،حملته الألسن رسالة صفراء تمزقها الأقاويل،شاع أن الكلاب هي التي أتت بتلك الجثث التي وجدت صباح الجمعة مرمية ،على مداخل القرى،بالديدان، و في منتصف الطريق رأى أحدهم بمنامه

كلابا سودا تتربص على القبور،ثم تنبش على جثثها المحنطة لتستلقي عليها بظهورها و تحتك بتمدد أجسادها،استفزهم الموقف قال أحدهم... و حتى شيخ القرية وجد ذات صباح وجهه باردا كالموت وحبات،من الرمال تلتصق بجلده و عنكبوت الخوف يخط صدره هذه الفاجعة العاشرة،بعد الألف تضاف إلى القرية قال الباقون : وما دخل الطيور الغريبة التي جاءت من القصر لتمزق الستائر و تكسر النوافذ،لتموت،بداخل المنازل،بعدما تبعثر أوراق الكتب الصفراء مغامرة شائقة و مسلية قال طفل فجأة تصارع على مرآى منهم،و فمه يرغي زبدا .

-٣-

سقطت صورتها امتطيت الرحلة الثانية أظافر قطط غريبة كانت تنبش القبور عرق غزير بدأ يتصبب من على جسدي، و في كل محطة كانت تصافحني وجوه جديدة لتواصل تمثيل الأدوار على رصيف الموت دوائر معتمة،و دخان البحر يجوب الريح الساكنة الرقص بدأ يشتد اكثر من قبل في القصر انطفأت الأضواء، و أحضرت الصبية،بألواحها الخشبية الغناء والطرب متواصلان نظروا إلى بعضهم البعض، و دعوا الحلم الذي قرأوه على الأكف،بمرارة أحسوا بشيء يشبه رائحة المطاط المحروق يعلو من سطح القصر الوقت أخطبوط،نهض يوزع خطواته،بلغز السفر

سقطت الأرقام المخمورة للمرة الأخيرة،ألتصقت آدانهم جيدا،بالجدران وحينها وقفوا يرهفون السمع لصوت الناي...

اشعلت سجارتي المفضلة،ثم رحت انظر الى عود الثقاب،وهو يحترق أقربت منه الصورة،بعض الشيء ألتهمت زاوية منها،ثم نسفت عليه حتى انطفأ ،وقلت في نفسي مخزيا إلا ذلك الذي لن يكون،استويت على مقعدي جيدا بعدما سبحت،من جيب سترتي ديناراعبث به قليلا ، ثم أخذت أنقش به على طاولة المقهى رسومات يخاف بها الصبية،و ألح ... ! استقريت عن آدانهم المعشوشبة تغيرت مسيرتي سحناتهم استحالت إلى حقيقة،بإ مكانك أن تغيرها على أوجه عدة :

{ ... أنتم مطالبون،بألف بقرة و خمسون عجلا ...مع جمع ذهبكم كله و حجزه في كيس،لتسليمه إلى أهل القصر . }

دورت الدينارا، على اليمين اصطدم بعضهم،بالآخر فرت الدماء من الرؤوس ساخنة،كالطوفان فتحوا عيونهم المخضلة حمرة بهدوء،كمن دمرتهم عاصفة هوجاء حقا بحثوا عن مصدره حملقوا في دقني طويلا تحركت أصابعي من جديد،تخلخلت شعيرات،لحيتي تداخلت خال لي أنهم تخيلوا أهوالا مزغبة تحاول التخلص منهم قبل فوات الأوان تحاوروا،بألف مشهد تجلت الرؤية لديهم بالصمت المركز نحو المجهول،وضعت خيوطا صغيرة على بعض الدوائر أغلقوا أفواههم من تسرب الرمال إلى أسنانهم المشروخة،ثم رفعت عيني نحو الطابور .

.٤.

في تلك الخطفة المباغتة رشقت الجدار،بصوره الحائلة،قابلني جحفل من النساء وهن يمرن في عرس يعلوه الزغاريد أومأت إلى الناذل، برأسي و كأي زمن خيانة كانت الأصبع جميعها ترميه بلغط الطلبات،طلبت فنجان قهوة استرحت قليلا،ثم حملت الدينار مررته،على حاشية الطاولة صاح الصبية يجرون،وراء آبائهم الجائعة،بفزع اللحظة المستباحة،بالخوف انتعلت ذاكرتي ريح الغرور خال لي لحظتها أني أكسر فرشاة بيكاسو،و صوره بالإحباط،و لما أقلقني صمتهم رفعت عيني إليهم، و جدت عيونهم مشوشة،بالصاعقة شيعوني بالجنون لأجلها قبل الأوان ... السكون في صدورهم،كان يقص عليهم أحاديث حزت في نفسي كثيرا إلا أن مدخلها تجاهلته للمرة الثالثة،الصورة الصفراء التي أغرتني،بجمالها كنت أحبها كثيرا تلمستها في جيبي الأيمن الذي لا يعرف الشمس قط أنهارا قلبي جريحا تحتها،ذرفت دمعتين متواصلتين تذكرت أمي بلون الحزن و الفراق داعبتها مرة أخرى،و سمعتهم يقولون بخفت الكهف :

يا له من غبي .. هذا بليد حقا .. ذاك مستحيل.

.٥.

وقبل أن أدافع عن نفسي، وعنها ارتفعت فجأة غوغاء صغيرة على جانب المقهى هرولنا جميعا ، لاستطلاع الأمر، وجدت العجوز يواصل و حروفه تخربش بطعنات القهر { أنتم ميتون لا محالة إن لم تمتثلوا و لهذا يجب أن نقدم أنفسنا مهما كلف الأمر،فهذه الشائعات،و الصور الغريبة التي تزورنا ليلا يجب القضاء عليها قبل الإستفحال و خلص بقوله :

{{ و النتيجة يا وجوه الفقر أن عيونكم كانت معطبة بقماش الدجالين لما جاءوا،بأرواحهم المهلوسة،بعودة الدماء . }}

النص بيان مساومة والكتابة فلسفة غيرية في سياقها البلاغي والجمالي فأنت كنت ذاك الذي يدور حول نفسه ألف دورة، ربما خوفاً أو حباً في طمع مفتاح يكسر صخور شط المتون.[٢]

● [٢] *مطارحات فلسفية للمؤلف نفسه.

ضجة أخرى

...انفلت،لوحدي متشائما في الشارع كراسي المقاهي تشهد فوضى،و خواء لم تعهده من قبل حديث البارحة مازالت تلوكه،بعض الأفواه بروتينية قاتلة رذاذ المطر يسقط الهويناعلى أخشبتها اللزجة،،ثم سرعان ما يتفرق نشيشا ناحية الرصيف،كبصقة قروي يتصنع الحضر...! انتصب النادل على اللاشي سرق نظرات سريعة عبرت الشارع الطويل،مدد شفته السفلي إبهاما،ثم عاد متعب الذاكرة خلف الطابور ... ـ الوقت {...} أمسيتهم ما زالت تراودني،بدمائها اليوم و في الصبيحة كان آخر ما قال لي {م } و هو يضع الكوب فارغا رغم حضوره هذه المرة،بنفسه إلا أنه لم يستطع توقيفهم فمعظمهم عزم على الذهاب،حتى على حبال الباخرة.

في خفة مسرعة عدت إلى تلك الكوة المجهولة المطلة عليهم من غرفتي،و ما ان اقتربت،حتى صرخت،بصوت ظل حبيس حنجرتي.

يا إلهي الجلود معلقة و الدماء كانت تنسكب على ملابسهم،وأياديهم تعانق رقابهم الغليظة،حتى إذا ما دنوا منه، تراكضوا لتقبيل أطرافه في خفة ورعب... و أكيد كان الأمر صعب جدا عندما كشفته يتوسطهم بعصا ملتوية و ينتفض من حين لآخر،كالملسوع في هذا الظرف بالذات يتحدث إليهم بالممكنات الكثيرة ويقرأ على صدورهم رمادية السلاح المدجج،حتى إذا ما توقف ليمتعق ريقه حركوا رؤوسهم طاعة و

إجلالا،كالغرباء أو كأنما عليها الطير السوداء {{... و في الحقيقة أني كشفت فيكم أشياء عديدة لا يمكن أن أعتري عليها الأن رويدكم يا هاذوا الزمن طويل فعلا و عمر البشر قصير جدا، و نحن نستطيع أن نوفر،لأنفسنا أحلام الحلم و الليلة الحمراء التي لم يستطع تحقيقها،حتى آبائهم و أسيادهم و في ما علمت أن السماء تبدو متشائمة،عليكم كثيرا حقا يذهب بذهاب الخفافيش، و يأتي الصبح بمجيء نوابه و لكن لا تنبهروا في ذلك الكرة الأرضية دائرة رغما عنا وحلم الليلة سوف نحققه و لو اقتضى ذلك موت البعض منكم ...}}

تمايلت رؤوسهم إبهاما وهلعا،للمرة الثانية دس يده في صندوق ذهبي اللون،تلمس كومة من الأوراق كانت عملة صعبة و أخذ يوزع عليهم الواحد تلو الآخر،وريقات صغيرة ملتصقة،بزواياها أختام طابع العهد الجديد،لئن تلمسوها أخذ يتشممها بعضهم،وقبل أن يتفرقوا استوقفهم على عتبة المخرج {{ ...اسمعوا سوف نقوم بالعملية فيما،بعد و لهذا يجب أن تكون على أحسن ما يرام حتى يظن الكثير منهم ...}}

أحسست بأشياء خفية تدفعني إلى الكلام ورغبة جامحة تحثني على الصراخ في وجهه وأنا أكتشف تلك الخوارق البيضاء تتفتت،بعدما تنسلخ عن جلودها الفائحة و ترمى، في الطاحونة،عبر المخارج،لتسحق و تعلب في شكل أقراص ماذا لو تلمست رقبته المزغبة وزهقت روحه نزل الصوت نتفا من مصارع وحدتك ...هم الآن على جارفتك حاول أن

تقلبهم من ذاكرتك الثقيلة،كالرصاص، و لكن عبثا لا تقدر تحاول يعودون،ثم يتزاحمون عليها، كالعفاريت هم الذين أتو بك أولئك الأشباح أجهد الذاكرة لتعرف،وجوههم بالضبط علك تمسك بأعناقهم،كالدجاج انهم،كالبرق و كل ما في الأمر أنهم غلاظ شداد مقنعون لاستغربوا المكان بارد لا يتسع،لأكثر من اثنين و عصاهم رقصت علي ما شاءت فقط يجب إلا أن تعترف هي الأخرى عملية الضرب و الطرح تعرضت لها و نجوتي كانت من عملية القسمة

ـ ربما ستكون اليوم ؟

و من يدري إشارة عابثة كبيرة أو صغيرة كانت أو أكيد ستكون فيما بعد من سبابة أحدهم إلى ذلك الكلب الألماني،لينهش ما تبقى هو الآخرمن جسدي كلب يطيع كلب في هذا المكان و كلهم كلاب من نوع آخر تومئة،من رئيسهم فقط يلتصقون بجدران المدينة المتآكلة،ليستنطقوها زاوية زاوية،كما استنطقني كلبهم من على رأسي حتى أسفلي تشمم لحيتي الكثة وتبول على وجهي ملوحة داكنة تسربت إلى حلقي و ما عساني أن أفعل أني مكمم و مكبل ولا أقدر حتى نبش الذباب المحاصرني،كالجيش ليتقاسم تركة المخاض و في الليلة الثالثة فجرا رأيتهم يتوزعون على حساب أزقة المدينة،و هو يتأخرهم رجعت و مشيت على رؤوس أصابعي خفية على أمي تناولت جواز سفري،و ما إن أدرت القفل،حتى كانت فوهة الرشاش تعانق صدري.

لما لانستطيع النوم ليلا نتعمد السفر فوق أريج الزهور للظفر باللحظة الأخيرة التي تنزلق من بين الأصابع كالماء ولكن شيء بارد قد يدغدغك ويعيدك للسطر...[٣]

● [٣] *مطارحات فلسفية للمؤلف نفسه.

اليابس يسكن الشفاه

...قبل أن تمارس الشمس عملية الغميضة،ولعبة الإختفاء لتبدد خيوطها الذهبية خلف زعف النخيل و... الكثبان الرملية المنتفخة، كبطون عمالقة في نوم عميق،كان قد حل بالمدينة أناس ثلاثة غامضون يرتدون اللباس المحلي دخلوها من الواجهة الخلفية في استكبار،و استعلاء فوق جيادهم الرقطاء.

... صعدوا طولا و هبطوا عرضا و أخيرا في الساحة انتصبوا كالتماثيل.

. زيارة على غير عادتها تعودوا عليها،منذ زمن التشرد و احتقار الأهالي لا يعرف مغزاها الا من نام تحت هدير القنابل و فحيح الرياح، و انتعل سعف النخيل في عز الحر.

ـ شيوخ القرية هم القساوة و القساوة هي الشيوخ بأخمص قدميها.

عيون غائرة من الأسفل تنضح،بالشفقة و جماجم مغلوقة متكئة على أشياء إنما هي على وشك الانفجار!

معظم أولئك عرفوا أولئك : بحكم العادة البدوية الخروج عن المألوف شيء غير عادي ؟

ـ ... العدوى انسابت،كالسيل من أسفل الشعاب،والوديان المكتنزة بالعنب و التمور رموا مناجلهم و مظلاتهم و صعدوا حفاة... أقدامهم تخفي في طياتها سنوات عديدة من ذكريات الزمن الأسود نساء القرية يشربن المشهد من أحداقهن ليلفظنه من أفواههن،يترقبن الحدث من

فجوات بيوتهن المتداعية،في هلع و زجع و تهيئة للعويل... في حالة ما...!

تهامسا الإثنان : ما الذي جرى ؟ قال أحدهم .. يا للفاجعة اليوم تقطع الرؤوس،و تحسى الدماء، و تحل الساعة الجو مريض السماء لم تمطر،أفق حزين و كئيب .. كل شيء يتحرك فيه بخجل و غيوم كثيرة ترتسم في أشباه عجائز،يلطمن خدودهن في عويل عذروات ... أطفال يلتحفون البراءة،ثم يصرخون بما تعلموه من الأبجدية.

عفاريت... ماردة تنزل من العلو...على عكس الذاكرة السلفية شكا الكتاب آبائهم : حالة غريبة و خاصة...!

ـ و يعتبر تمردا كذلك...!

الرجال الثلاثة في برانسهم البيضاء تنام كوارث عظيمة ،في أهذابهم عصا شبيهة،بعصا سيدنا موسى أحدهم يتكئ على الآخر،و ينزل في قفزة غير بدوية .. ينتعل حذاءا .. محفوفا،بالزخرفة الذهبية مشى،بضعة خطوات طارق الرأس،وعصاه تطرق الأرض المحدبة على ظله في وقت غير مناسب،شمر يديه،كأن ذلك زاده حماسا...رفع رأسه قليلا...و بصوت الخطيب يبدد الصمت : نحن الرجال المنفردون الشرفاء والأنبياء جئنا من عند سيدنا مولانا الذي لا يذكر إسمه أمام الملأ صمت قليلا سعل ومسح شاربيه متابعا : المهم و حسب ما أطلعنا عليكم،بعض الكهانين

علمنا أن في قريتكم أطفالا يحرفون القرآن و يحرضون على العنف و العصيان،لدى الجلالة.

الكلام يسري مع شعاب الادان... الإرتعاش أصاب بعضهم و كهرباء بدوية تحرك أوصالهم ... اليابس يسكن الشفاه الألسنة أعياها السحب و المسح و التجرد من الشجاعة بات مألوفا لبسه الأوائل دونما جدال لم يعلقوا... ظلوا متشبثين على حروفهم.

كلماته تجلجل،بدوا خلهم، كالعاصفة...كانت قنابل تزرع فوق حصاد...كانوا أرضا خصبة لم تعاند السماء بعد كانوا يسمعون ولا يناقشون،لأن في ذلك ما يجعلهم عجينة صالحة لشتى الأشكال.

تململ في برنوسه،للمرة الثانية دس يده في صدره بحركة فيها نوع من البرودة يستل ورقة صفراء مخططة بماء الذهب لية أو ليتان رمى أسلاف برنوسه خلفا،وتأهب للكلام من جديد في شجاعة وهيبة عظيمين،كأن الكل أمامه صالح للديسان / السمع... و الطاعة جزء لا يتجزأ منهم حتى الممات... وضع الأوراق وثبته بأربعة صخور بعدما أوقد فوقه ...عود ثقاب مع فتاة من الأدوية و البخور...و أخذ يدور على الدخان و يتكهن في همس بثوبه المهلهل : هيا اخرجوا المشعوذ...المنطقة ستبكي كالعذراء!

اصـــــمتوا أسْ... أسْ...وضـــــع إصـــــبعه فـــــي فمـــــه يوهْ...يوهْ..أنظروا...!أنظروا...صهيل الخيول و هي تطلق البرودة على

السماء الرمادية،الأزمنة الغابرة قادمة وزمن الجوع سيحل بكم يا ناس... اتقوا الجلالة يا هذا يا أنت يا... وإلا و أمرنا بهلاك القرية...!

كان الجميع يتابع المشهد...الجميع يتابع المشهد دخان التكهن يدمع أعينهم ،كان البخار ساخنا، كراقصة شمطاء .. و دوائر في الهواء تشكل خطوطا مبهمة .. وكان هو كذلك يتابع بعصاه : يوه ... انظروا...يفتحون...عيونهم المائلة على حدتها و تشرب أعناقها إلى حد الانفصال تنتظر الاقصال ... تهامسا الاثنان :

* ... نعم يبدو كذلك.

. ...لا قلت ... لا منهم .. منهم .. سنحكم على المتمرد و نربط عنقه بأذيالي الخيل،لنشطب به الرذيلة حتى دار الجلالة نظرات حادة سرت،بينهم لما بكى كالجمل، من جراء ذلك و ببحه في حلقه يتكلم : لكم لكم أن تخرجوه قلبي ورأسي يحدثاني وصاحب الجلالة يهمس،بأدنى...أدنى .. هذه العالقة برأسي و مال كالمطبل الاثنان يتهامسان :

(دعني أنطق لهم بصراحة) لا قلت لا ألزم مكانك...و أبق فوق جوادك...لم يبق إلا...دقائق و نقضي على المعضلة كيف ؟؟؟ الصمت ثعبان يتجول في وسط الحلقة،لمدة قصيرة،ثم يتراخى في تكاسل..صيحة دوت من الخلف،كطلقات الرباعية متراصة...عجوز وشيمة الوجه،بمعطفها ...طفل وديع يبتسم في هدوء، كان...!فتحوا لها

الطريق في وسط الحلقة ركعت معه تتضرع لوحدها...راحوا ينظرون إلى بعضهم البعض و لم يستطع أي واحد منهم أن يتجرأ،بكلمة بادلوها السكون و بادلتهم الارتباك... مع صوتها المبحوح فيما كان رأسها يبحث عن بنات الشفة،حتى القاع حشرجة بصوت جنائزي : هذا (تبني) الذي كاد أن يعصف،بالقرية غاضبا.

. يسأل أين أبوه ؟...

تلكأت خجلا : لا تبني ... تبني أقصد (..) لا .. لا .. نطق واحد من الاثنين وجهه ضوء عيناه حارتان .. عريض المنكبين مفتول الشاربيين حشرجة قوية بداخل أعماقه...أصوات تصلها ملتوية مع همسات شبيهة بهمسات الجان : انطقي و ماذا فعل كذلك ؟

. تجيب في فزع : كان ضوء الشمع باهتا و قرأ الأبجدية بالمقلوب مع آية الملوك المحرمة علينا ... ضمته إلى صدرها النحيف المتجعد،بادلته حنان الأمومة .. فراق يلهث في الطريق بكت شهقت شعر أخطبوطي و وجه عبوس يطل خلف الهوامش في زمن،غير بعيد سلبوها،بقوة من ابنها الأكبر الغرباء،في خاطرها تذكرت زمن جفل الديكة والماعز وخوار البقر،ورمي الأواني في الهواء،بأيادي العساكر : مارد متجبر .. يرفع سبابته،ثم كفه علامة على انصراف الجمع الرؤوس مطأطئة ومذلة كيوم الحشر.

و أنت.. تح .. مع ...

و في بدوية تحرك قرص الشمس الفتي مهاجرا،نحو الغروب،ليرمي خيوطه الذهبية خلف النخيل،لتعبث به جحافل الظلام الدامس حتى التلاشي.

أجمل نص تكتبه في حياتك هو الذي تنساه بمجرد الابتعاد عنه.

جثث الوجوه الجائعة

... و الآن هل تستطيع أن توقف دماء الوجوه المذبوحة التي خطفتك من آلاف الحناجر، و لكن قلبك يئن كثيرا تحت ليالي الصورة الغائرة مجرد ذكرها تشعر ب ... و ذاكرتك تحاول الانفلات هكذا قال لك تكهنه ذات يوم و هو يعصر عينيه من رائحة البصل .. ـ أنت هارب من لحظة موت حية .. أصابك الحقد و الأفكار الممزقة على أرصفة... الشوارع .. و... و القش العالق،بلحيتك ينقصه الترتيب... أردفت على مضض : وكيف استطعت أن تنجو منهم أنت ؟

. من ؟

. هم ؟!

...و لست أدري كيف تسنى لهم التسلل إلى المقهى دون أن أشعر بهم تماما،أولئك الذين أخذوني إلى حيث لا أعلم في الليلة الثالثة أحذيتهم براقة،كجباه السود وسحناتهم صفراء منحسة،كانوا يترادفون على الطابور واحدا واحدا،حتى إذا ما لمس قائدهم، و على جناح السرعة يرمي له خواف في جيب سترته الوسخة،مسحوا شواربهم الصفراء،حركوا نظراتهم الغائمة،تقاسموا لغز السر ولم يتوانوا أن انطلقت أقدامهم تتجرجر،على بلاطه جيئة ذهابه وعيونهم القلقة تمسح،على الصوامت خفايا غير عادية،وكانوا حتى إذا ما استقروا نشروا على وجوههم جرائد

قديمة حائلة وعلى ظهورها تتوزع الثقوب،يترقبون من خلالها خلجات القلوب وتتجسس على من يحاول أن يمس السلطنة بسوء.

.كيف ... ؟

دعك من نبش خلاياك،بأسئلة القبور .. المهم أدركت أنهم يوهمون الناس،بطقوس حديثة و أنبياء عمات و مطعونة من القفا ورغم ذلك ففيها ما يعوي و يجدب، بشكل عصيهم المحدودبة التي كانت تسكر من كشف هويتهم الفجرية.

. لماذا لا توافق يا جبان...؟

تمتص الذكرى وتستنزف مادتك الرمادية،يتصلب الموقف أكثر أدركت أنهم مارسوا على جسدك أشياء محرمة،مكانك كان هزيمة،و عندما يحضر الليل يتحول إلى مضجع لأهل السهر يرتفع الضحك و تبرز على أثرك الأضرس الأخيرة من الفم،و حين يتعطل،لسانك يجف حزنك و تتمدد تقاطيع مسيرتك وعند قدميك كانوا دائما يمسحون السوط و يخرجون،نحو الأروقة ليستبشروا بمداعبة الكؤوس والقهقهات الجنونية،بليالي الصمت.

. حذار ..منهم فأنت لست منهم مهما أدخلوك معهم.

تفتش عن مصدر الصوت.. هذه اللعينة من أتى بها.

. أنت مجن ..

. هذا منزلك يا رجل ..

تتحسس الطاولة من جديد تتلمس ما خربشته على الفنجان الفخاري،تتطاير الأوراق و الزوابع و تنهض العاصفة الجنونية تسقط الأقلام و الفناجين الأخرى من الطاولات،و يزداد شرر الغضب،في العيون يلامس قلبك تشعر بالأجل يأخذك تفكيرك،لآلاف الزوايا يهرب منك الأصدقاء تشير إليك الأصابع،بتقويضه يحضر اسمك على نشيش البصاق الممزوج،بمادة التبغ ..

. مرة أخرى أتحسس بـ ..

و في مساء الأربعاء استوقفني،على عتبته قبل أن ينصرف مغمورا،نحو المقهى المغمور،بدخان الغياب... الأحلام تحاصر،بأهدافهم.

تحرك رئيسهم مستسكنا،مع لزاجة المقعد كالحلزون... ملامحه كانت مركزة نحوه وتشير إليه بسؤال إنما هو على وشك الانفجار، قلم أظافره و أضاف لصاحب الجريدة متأسفا ..

. و أنت ؟؟

لئن ضربني هو بنفسه ضربا مبرحا،بالحبال المبللة بالملح زعمت أنه ليس لي أرضا من اليوم أفقي كان ضبابا، وعلى ظهري تنتشر خريطة الحبل المنتفضة تدفقت من أول وهلة تحسرت ، ثم وقعت على ظلي والأرض الباردة هو ذا الزمن يؤكد .. انفجارات لتنهيدات من الأعماق يصدر صوت البئر قويا أبنائي من خارج النافذة بكوا اللحظة المظلمة و صمت القبور المندية هرب الجمع،وتفرقعت المسدسات صواريخ صغيرة

ارتطمت،بالجدران تطايرت بشظاياها صراخ البوق انكسر الطابور،تحت الطلاء تدحرج صوت التصفيرات الحادة،مع الأحياء الضيقة بالشقوق وخيوط العنكبوت عطلوا حركة العضلات بالفشل،وخدعوا الكل،بتهاوي الجدران في يوم ما.

. أسرعت بفتح .. السؤال ...

. قاطعني،بحدة ...

. أتعرف كم أساوي في قلـ ..

ادن حاضر سيدي ..ف ..ف .. ف ..ع ..در ..ة

احمر وجهه و اصفر تزحزحت نظراته تكتسي، وجوههم رائحة الضجر ونعيق البوم تداخل معهم اختلطت علي الأرصفة الباردة تغيرت سحنتي،و قبل أن أتلفظ بالنجدة كانت أحذيتهم المستوردة تقذف،بي في ظلام القبوات، و لئن انتصف الليل امتدت إلى أياديهم المقنعة لتنتزع مني رجولتي و إبر صغيرة زرعت على يدايا المعروقتين حالا،لغسل رأسي المشوش،بنبشات الفنجان.

هؤلاء القراء الأغبياء هم الذين كسروا ألواحي الخشبية على ألفاظها وسلموا بفيضانات من الحبر على قنوات القرى فأنا لم يزورن المخاض القدري إلاّ ليلة اقترابي منك، فلغتي باتت أجمل شطر لحظة زوغان جسدك !

جنون في منتصف الذاكرة

لم يكن {كروماً} يأبه أنه يتحرك،في عينيه يذوب العالم و تكبر المهزلة و السنين كان لحافها سوى العري والأشواك غشته وخزات في قلبه أعنف من الدبوس،و للحظة يجفل من مفترق شوارع اليأس يهرع، مثل جرو لفظته أزقة المدينة، و ذعرته أياد نجسة،يجر خطواته في غير هدى، كالذي يجر عار الهزيمة في قلبه تعشش قنبلة و سكون بارد كالمقبرة ولم تبق إلا دقائق على الانفجار سنوات تمر و أخرى تأتي على الدرب،برتابة و كلل تمتطي فرسا عتيقا،و بين لحظة و أخرى ينبش الشيب المتربع على رأسه،و في لحظة تمرد يسترجع شريط ذكرياته عله يعثر على بصيص من الأمل زمن كان يلهو بعلب السجائر و أعواد الثقاب الواقدة،بأعماقه،مثل بئر يعلوا من جوفه بقايا دخان،فاجأه الصوت متشرذما.

. ماذا ترتد يا ....؟

و لكنه ذهب منذ...خرج .. انه مشغولا في اجتماع في...في... إلى الجحيم كلكم قالها في نفسه و انصرف يجر حذاءه المثقوب،و تحت ظلل شجرة وارفة جلس القرفصاء و...

. س : قل لي ؟ أريد أن أفاتحك الدردشة.

آه معذرة قل لي قبل كل شيء ألا تشعر،بشيء يتحرك تحت قدميك ؟ دبيب من النمل سيرحل بك إلى الصحراء القاحلة ههْ أنظر حتى الأرض

ترفض بقاءك على ظهرها ..أحذر ... ستنتفض بك في يوم ما،لتلقي بك من ورائها.

هيا نفذ كن شجاعا ... ألم يكن أبوك فارسا مغوارا هيا...ء... ل... تلك لي... أمثال و...أما أنت فموتك أهون،حرك يديه في الهواء كمن يتحدث مع جليسه :

ـ س : الانتحار ؟ لا.. لا.. تفكر فيه قط ..انه منبوذ حقا ولكن عندما تفكر فيه أحيانا لا تقدم عليه ألم تقرأ مؤلفات الفيلسوف ؟ انه التعبير الحقيقي عن الذات دقيقة أو .. و ها أنت جثة هامدة تقتات منك حشرات الأرض قوتها.

ـ س : سميه ما شئت المهم أن... ؟

حذرته نفسه أو كمن يضغط على أصابعه بشدة:

ما بك يا رجل جننت إياك أن تفعل ذلك سيرمونك بسهم الجنون والجيفة وأشياء أخرى و... تحسس رطب التربة،أفاق من سهومه رأى سربا من الغربان تحلق في السماء،وتقيم مهرجانات إلى الرحيل أومأت هي الأخرى،للحظة تحركت السفن الحاملة،بالعباد نحو المجاهيل طأطأ برأسه رمى خطواته في قلب الشارع الطويل،مهندس يرسم شرايين الحياة في استحياء،و الآخرون من حوله عيون متسائلة تبتلعه بشفق المجنون،فك أزرار قميصه ظهرت في حالة استعراض كاشفة عن زغيبات صدره المتناثرة هنا وهناك،بحجم الذباب و أشياء بدأت تحثه...!

صدقوني أيها الناس أيها الجهلة هذا ظلم عصر الذاكرة فسقطت الورقة الأخيرة، والشهادة المدفون بها أربع أو خمس من سنواته الهاربة من عمره في طريقها إلى عربة الكاكاو.

– س : و لكن الأمر أكثر من العربة،و أكثر من أن تتحصل على الدراهم الأمر يا مطحون،بحجم الأوراق المحروقة و حياتك إلى الجحيم أنت كذلك .

و إلى أين تمضي إذن،كان الأفق، بلون الرماد الباهت في وجه المدينة أخذت السيارات تتصرف،عليه بمهل و بين الفينة و الأخرى،ينفخ الشرطي الواقف على الدائرة في صفارة من حديد،حينها التفت مفزوعا، وللحظة يقفز أو كمن أعطى له الإيعاز،الهرب إلى أي مكان؟؟؟ المهم أن نتحول انطلق،أخذ يجري،و يهرول تارة،إلى الأبد و قدماه تنزفان دما.

أعلم أيها القارئ أن النص القادم، ضرباً على صفائح أقدامك، كالفلقة، وأنت سآتيك ذاكرة مراهق، يوغل فيك كلما لطمه موج لعابك الخفيف* [٤]

● [٤] *مطارحات فلسفية للمؤلف نفسه.

الجرح يندمل

. التفتوا يمينا .. !

ركزوا نظراتهم،بين تجاعيد وجهها و راحت آدانهم تستأنس ، بحركات شفتيها المتلاطمتين على بعضهما البعض :... و أضافت وهي تضغط على ركبتي أحد الشبان... و لكن فلانة أخبرتني أنها وجدت ستة أطفال على حواف الأعشاش مستلقين...و مستأصلي العيون و الأقضاب، بيد أن رؤوسهم تبدو في منتهى الصحة،ونصف امرأة مجردة من لباسها ماذا يعني كل هذا ؟

...و...

و يقال... أنهم.....و.. و.

غير أن الرؤوس كانت مقلوبة،و الرؤى تسللت إلى خلاياهم المشعة،بالرفض عكسيا وعوض أن يبدوا بالكبار،بدأو بالصغار تكسرت صور القرية،بالتحديق على نظرات الغرباء...تغيرت الرؤية إلى العجوز المجاورة لها.

. التفتوا يسارا.. !

فتحت الدفة الأخرى للنافذة واشرأبيت،بعنقي نحوها، بعدما توقفت عن الكتابة على حين غرة شرعت السيجارة تأكل الورق شيئا فشيئا،وجدتهم حقا يتجمعون هنا وهنالك عيونهم تلوك أحاديث عجيبة أحداقها تشع،بأبرقة من الخوف،وعلى حواشها تنتشر خيوط الموت السرمدية ..

و لم أتوان أن حضرتني طفولتي، بعدما تعمدت رأسي بين كفي تذكرت نفسي مستلقيا،على بطني وأنا أتابع حركات قطع النمل،وهو يسير في جنازة باردة،لملمت أفكاري،ثم استفقت من شرودي على قطرات المطر الخفيف،و هي تتهاوى من سقف غرفتنا المثقوبة، وقبل أن استدرج الأمر اخترق سمعي من الأسفل همس عجوز ثالثة وهي تنهي حديث الرؤيا :

ـ اقتحموا القرى ليلا... أجسامهم خيالات تداعب الأنظار فيما حضرني من بعض النساء فجرا اليوم من تحت الستار .. انهم يعمدون على خطف الأطفال ذوي الذاكرة الفطنة .. مع الغروب حتى إذا ما انتهوا بهم إلى أعشاش النخيل المبللة فججوا رؤوسهم واستأصلوا أمخاخهم بناتفات حديثة ترفرف على حواشيها شعر الضحايا .. صرخت بصوت ظل يبحث عن مخرجه الجهوري .

ـ طيب وماذا يعني كل هذا و إن لم يكن ...؟

ـ ... طارحني هذا الصوت المجهول :

ـ اسمع افعل أي شيء تراه مناسبا لك ولا تبقى هكذا مثلجا اجتاحتني رغبة غبية في أن أدفن رأسي تحت كتبي و أوراقي الملقاة على الطاولة،ولكن عينايا المخضبتان،بالدموع تهالكتا على غصن أثقله طائر غريب الشاكلة،يلهث بصعوبة، وعلى جسده آثار بعض الصخور المغمورة ،بريشه...و تتجاوز ملامحه المستنقعات و الأحلام المجنونة،بالخيالات المتسخة عيناه كانتا تمسحان اللحظات

البعيدة...من تفاصيل هذا الكون تلمست شاربي وجدتها تكاد تلامس السقف .. كدت أن أصرخ أن أجن لما أحسست بأشياء خفية تلاحقني،أصوات أقدام غيرعادية تعالى ضجيجها من على المنازل،كان صوت الرعد يتفرقع،والسطوح مشبعة،بالرطوبة و سكان القرى الأخرى،كانوا يشدون الرحيل بوصاياهم الخمس ساقطين الرؤوس،و يتحركون تحت أكياس بنفس الحجم تتلاصق على ظهورهم المطلية بالسياط ،وحرقة الشمس تمسح من على جباههم سواد الليلة ..

ـ قلت في نفسي :

... و الآن أستطيع أن أعرف ما غيبته عني مأساة أمي،و ظلال السنين وقت كانت أصابعي المقزمة ترتعش،بالألوان على جدران حوشنا الموحش،بالغربة و النفي رسومات عديدة،و أناس تجردوا من ملابسهم قبل إبلاغهم ذهاليز يدي وخالي المنخور.

ـ قال لي أخي آنذاك بصوته الساخر :

ـ.. أنت مصاب،بمرض الوهم وذاكرتك مفجرة بزمن الحزن،وأحلامك مركلة،بليالي العري و الصقيع... !

..و ما ذنب هؤلاء أطلق سراحهم قبل ملامستهم بالألوان ..

ـ اقترب مني الصوت أكثر .. وحديث الرؤيا ازدادت هوتها بحيرتي و قبل أن أبطش بسيجارتي، و أدواتي أدركت أن هؤلاء الذين ظلوا يمارسون عملية الحفر بذاكرتي يجب أن أتخلص منهم قبل أن تغسل

الأمطار جدران مدينتي المغبرة بالهشيم،و الحروف التي كانت على جوانب الورقة علي أن أغير موضعها قبل أن تحمل قواطرها،نحو باقي مفاصلي المشلولة،بمرض الهجرة.. !

و في الصباح استيقظت القرية المحاذية،للنخيل على صوت العرافة و الطبل تفيد أنها وجدت مناجل صدئة ملطخة،بالدم مع قيح العذروات..!

الأقدام المفلطحة

يا واحد الكلب ! ولد الكلبة !!

البرد والموت سكنا عظامك الهشة و مازلت بعد لا تستحي من أسمالك الخرقة وجهك يركب ألف حكاية في حكاية و في كل حركة له حسناء تستكمل الحكي على أبراجي الشلالات،،و الجداول يا واحد الوقح !! لو كان يعلم عليلو ما سيجر من ورائه لشنق نفسه حبلاغليظا على جدران بيوت الطين أو ربما لقطع لسانه و سمل عينيه بنفسه أو ربما لعتق من الإمارة ألف رقيقا و ذبح ديكه الاسود عشاءً لهم .

–سئم وأوصد المسعودي مجلده بكامله، و بعد أن سربله كثيرا الملل وأعترف و قال الكثير،للحنين و لخادم وزيره مسكينا حكايات كثيرة ملئت فمه بزحفها المطلي بسواد الكهوف الصامدة،منذ قرون الامبراطور ديكوس و الثلاثة النيام رفقة كلبهم بوصدته المحنطة، بالرغم من ان عليلو ورفاقه لم يكونوا حتى و لو نطفة واحدة في ذلك الوقت،لأن ترتيب الأرقام نفسه لم يكن في ذاك الوقت و حتى الاسواق،باعلامها التزيينية اختلطت عليهم بدايات النهاية و في كل بداية لها خط يمزقها قوال بحلقته،بقوة و بحسب عمائم تلك الوفود من العشائر المستوجب لهم زيارته كل عام.

– أوف !!

أعدتها من جديد اذن !! من الصفر كالعادة لك حبي ثم حبي !! فان كانت غدا الليلة الثالثة،فأبعد عني لسانك و أصابعك و ان لم تكن فالليالي السبع لا اود سماعهم ... !! منك انت بالذات و أنا ساخنة ارجوك،فلا تحاول إرغامي على ذلك .. !اردف و دون مكترث بها مواصلا : و مهما كان يبالغ في ترطين كلامه المتداعي ... و ثم دفعت شرذمتي داخل جراحي النزيفة متاعب غبية فوقي أتذكر ولكن احترافي كان ضعيفا جدا... أدور هكذا حاملا هزيمتي ألهت انتشل على نية فارغة،كأعجاز نخيل تود الركض خلفه بهدوء ... توقف،ثم ردد مسرعا بنشوة الحقد :

الاقدام عائدة من ندوب صحراء مجهولة ... !

اودع راسك بين ثناياك ... كم من مرة زعمت ان عطب يدك هذه يسحق العالم ... و يسراك تدون و تكتب ، ثم تحاول ان تمص شفتي بلقيس و أنت بكهفك تعصر تتلذذ،بجسدها الرخو،تداعب صدرها يشتعل لهيبك تضمها جيدا يسقط يتقاطر ...تتراخيا معا و تلح مقهقها صوبهم بصلعتك الجربة <<مائة عنق و تسعون خنجرا حالا و تماما مع ...>> غير ان بداخلك ذهليز الرعن بدا يرغي كلاما بعيدا و لحظة اليقظة المسيجة صراخ يهز كيانك استفزتك لحظتها قدم فصلت من شدة الحر،طويت الرسالة بسوائل حبرها خائرا تدمر مفاصلها تمزق

نصفها تنأ عنك مرة اخرى تأسفت، ثم سررت و لكن تقهقرت ككلب شعر بدنب صاحبه علية يطعن ظهره وذيله يبصبص.

– لا حول و لا قوة ... كان بامكاني أن اكون شيخا الدوار و الكلام معي منذ الأن ... زعقة مرة كالعلقم .

عاد اليك الطفل من داخلك الأن رق شعورك،بدأ يحرك حفنة رمل دامية من بن طلحة، يملأ يديك تبللا معا لعبتكم الاخيرة و بكل سخرية ترصصا بيوت الطين على حجمك و هذا عرشك نجم هاو يرتطم من شجرة الزقوم صدى هتلر انتظر الفرصة كثيرا ... فكان صوته زفرة تهز ولائم البر فوق الصخور المقعرة ... كانما بها مس من تنهيدات البحر.

ها هو ذا مثل الجمل يحمل معاناة الفقر و يتقيأ هيجان رحلة عاقر على اليابس فوق ملايين الرؤوس الحلقة ... لفته و يتعذر عقربا الساعة العالقة بوجه المدينة ... برنين حزين كبيدا موريتانيا.

– لما البحر يمد لك اعترافاته الأن ... بعد ان هرمت دوامة رهيبة تقتفي أثرك ترمي بنفسك عمدا ، نحو أماكن رغم أنفك جدران الشوارع تعانق بعضها ... وحشة الخريف تسقط أوراقه حزنا ... ويحك رغم قصفهم المكثف فأرض العرب لم تسقط ، ذلك مجرد حركة خلف ستار الخشبة رغم خراب ودمار الشعوب لكيانها بنفسها... هذا الانف لا يمسه التراب أبدا ،صاحبه مجرى دم عربي و بداخل جسده يتكوم رجل يمارس على شاربيه مسدة العمر الخادعة.

–الا تفهم كلامي من أي قبيلة أنت؟؟؟

أقدام مفلطحة معكوسة تركض رهن الخيانة تستلذ بأي غربة ،تربتنا ام رؤوم تحت الحطام أفكارك مجرد تهور ألقى بك على عتبة باب يذكر بنحيب ... ليلة مثلجة جدا .

لباس يتدثر هلعا ... السرقة تضم عارا في البعد كنت أتحسس هجع معنا قليلا،بيد اننا لم نكترث به حدجنا مرة واحدة :

– أية جهة تحب ؟

حبست ضحكة صديقي،كادت تنفجر حارتنا حبلى بتشوهات دفعة واحدة زقاق ضيق كان يتشاجرون فيه النسوة دون سبب على الجانب يقبع درويشا شيخا ايضا، تسولن طلبن الدارهم ،دار بينهم دينارا جائعا سكن القلوب،شق السموات السبع شهاب ضاء الظلام كشف عن لمعة واسعة تجابه الوجوه الشاحبة،طل من وراء السيارة،صليل المفاتيح و الدراهم بدأتا يحدثا رنينا ،في الصف الخلفي ضابط يعبر الرواق الآن المؤدي الى باعة السمك.

اقفز يا حميمو !... الى هناك !

لما تحدق في بهذه الصفة ... لقد ثم كل شيء أغمض امسح عينيك من عمش الامس و أستسلم لرمدة الزمن ... مادا اقول له ... ابشره باقتراب المنفى يطبعني بكاملي نعم يطبعني كالعجينة كلام ما فيهش إثنين يا خو !

٠٢

ملامح موعودة تشق العاصفة غضبا عطش يزمجر السماء في ليل حالك اللحظة يهجر رشاش يتفرس من جديد ... طلوع يتامى خوفهم هو حاجز نفسي كان يغمد جراحات كبيرة جدا ذوات تسكن وجها يثير الشفقة، تحوم على رفضه بعوضة تؤمن الجرب مجانا .

– عد رسم خريطة العالم جيدا ... و أنسف من على الرسالة خطوط الفحم العالقة بالقطب الشمالي ... اليد ترعش الجسد عدة مرات أشكال تتسارع عقب السكاكين كوة تعج بانتشار مرافض طويلة الادانة للاسف ضاعت مني كل خطوط فكرتي الاولى .

يا السي قر مط الله يخليك أمازلت ... ؟ و كنت مهوس بحقائب السر في عياء... و غفرة السياج المثقل بسن الرحلة ... لفعتني نسمة باردة أسدلي شمر الخيمة هذه الافكار لوثت دمي زمجرت حنقا :

–الحسين ؟؟؟؟ .

حزت غضبها في صدري السكير الملقى باسفل البناية يكون قد ثقب ساعده بالابرة لوشم حبه المهدر من اجلها ... تذكرت همس البارحة بادني و لحيته الوخزة مرت القضية خرسة و على احسن ما يرام وبشهادة كل خصومك بما فيهم المتعاطفين معكم و المنشقين عليكم ليلة مكيدة أمير ولاة الجهة الوسطى مهزلة موجعة و الآن ما عليكم إلا أن ...□

– عهدي بك على غير هذا ...!

ازداد شرر غضبه من هذا الحكم آسفا:

وسع من صدره بكل شجاعة وأشار لخلفه أن يأتوا بمن يحمل رسالته اليهم احضر واحدا أصيب بالصم والطرش من جراء هلع ليالي سقوط غرناطة وهو نفسه من أتهم بالمتاجرة في الحشيشة،وجزء من شظايا حديديات مسننة مازالت مرغة بروث أحشاء الخلق المتساقط جراء التمرد الجنوني والغضب الثوري، كتم واحدة بقماشه وألقى بالآخرين صوبا أشلاء لم يزل لغطها وعويلها بادئ أثرها في كل شيء،ثم قال هذا رسولي اليكم وقد حان وقت الفرج مباشرة عقب نيتنا الحسنة منا أو منكم أو من أي قبيلة،أو من أي بركة غيث،قد يأمر بها بابنا بعرشي أو من أحدكم رحمة بهذا الشعب تفقد السي حمدان أنه لن يستطيع أكل طعمه لوحده، رغم بركته ولو كان حاضرا معه كل أحفاده ومؤيديه:

. هيا أدخلوا أفواجا اتركوا نساءكم باحة لحرسي العزيز مع أني أعلم أنكم تعرفون تماما معنى كلمة باحة،أي لاحرج أن يرعوهم طوال هذا الحنين الى أن شئتم ثم >< كولوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء وألف بين قلوبكم... >>

. جميلة أنت خنسائي لوحدي فلما لا تنسين زعجة حلم الليلة المائة،بعد الآن...لكن معذرة عن كل ما فرط مني لن تضعي هذا الحمل قبل أن آتيك طيفا،لمساعدتك وأكيد ليس لي سوى هذه الظفائر الرقيقة... مفتولة على شرفتك تماما بعدما أمدوهم بزحف ناء فتح يديه من عرق

الحبل ،رأى نفسه يمثل على خشبة المسرح وهو يزوبع مقاطع زغرودة لأمكنة، بدأ يبكي ،ثم يبكي ويهتز دون دموع، وعلى قسماته وجه يدفن المآسي وينسج سفر لأمرأة لاتحب أحلام الفقراء، سحبت عنه الغطاء،وقالت:

<< أنصت هاهي أثر أقدام سوداء تبصق كآبة الزمن خلف بيوت الطين الرطبة>>

نبذة عن المؤلف

قاص جزائري

(اعجزتني الحيلة للدخول الى فضاء هذه المجموعة القصصية إذا لم أقل وقفت حائرا لتعدد عوالمها الجمالية و الدلالية)

بن خضرة كمال ١٩٩٩ جريدة الصحافة .

« قصص الزين مليئة بروح كاتبها و هي روح فنان حقيقي يبدو أنه خلق ليكون من طرازٍ ناذر... }}

الكاتب : الجيلالي خلاص جريدة الخبر ١٩٩٩

نبدة عن حياة مؤلف :

تمرس على الكتابة الإبداعية و النقدية ، ثم عرفت أعماله حضورا قويا ، بمجلة كتابات معاصرة / بيروت منذ ١٩٩٢ و مجلة علامات السعودية و غيرهما .

– من مؤلفاته :١– رائحة الوشم

٢– الكتابة والنص / نقد

٣– رواية / القيرع

٤ – صحوة الأشياء /رواية

5 –سنابيك الأمير/رواية٥

٦اعتراف وطن/ديوان شعري

٧ انا الاندلسي / ديوان شعري

(سكان القرى الأخرى، كانوا يشدون الرحيل بوصاياهم الخمس ساقطين الرؤوس ، و يتحركون تحت أكياس بنفس الحجم تتلاصق على ظهورهم المطلية بالسياط و حرقة الشمس تمسح من على جباههم سواد الليلة ..)

الفهرست

توطئــة ٢
المكان والمكانة ٢
الإهـــــداء ١
صحوة الارواح ٣
زوبعة الليلة الثالثة ٨
ضجة أخرى ١٤
اليابس يسكن الشفاه ١٩
جثث الوجوه الجائعة ٢٦
جنون في منتصف الذاكرة ٣١
الجرح يندمل ٣٥
الأقدام المفلطحة ٣٩
نبذة عن المؤلف ٤٦